

سوق السراجين ببغداد

أ. د. عبد العزيز حميد

جامعة بغداد

البحر الأبيض المتوسط حيث تتطلق منها السفن التجارية المحملة بالبضائع الى المدن الأوربية وبشكل خاص في القرون الوسطى وما تبع ذلك من حقبة زمنية.

لقد اشتهرت بغداد بأسواقها العامة الجامعة منذ أن مصرّها ابو جعفر المنصور ١٣٦-١٥٨هـ / ٧٥٤-٧٧٥م في منتصف القرن الثاني الهجري / الثامن الميلادي حيث جمع : "...فيها جميع التجارات والبياعات."^(١) ثم علينا أن لاننسى أن بغداد القديمة نفسها قبل تمصير أبي جعفر لمدينته مدينة السلام كانت سوقاً يأتي اليها الناس من كل حدب وصوب لتبيع وتشتري فيها. ومهما يكن من أمر ذلك فإن المدونات التاريخية القديمة لم تشر الى الأسواق التخصصية لا فيها ولا في المدينة المدورة الا عندما أمر ابو جعفر المنصور بنقل الأسواق الى خارج أسوار المدينة المدورة، حيث أمر أن تكون منفصلة عن بعضها، وأن لا تمزج تجارة بتجارة ولا يباع صنف مع غير صنفه، ولا يختلط أصحاب المهن بغيرهم.^(٢)

وهكذا صار اصحاب كل سوق منفردين بتجارتهم، فكان هناك سوق البزازين وآخر للوراقين وثالث لباعة الصابون ورابع للحدادين الى آخر تلك الأسواق التخصصية.^(٣) أما في شأن سوق القصابين فقد أمر ابو جعفر المنصور أن يجعل في آخر الأسواق حيث نقل عنه قوله بحقهم : " أنهم قوم سفهاء وفي أيديهم الحديد القاطع."^(٤) ظلت الأسواق التخصصية من أهم ما تميزت

تعد الأسواق وما يعرض فيها من سلع واجهة حضارية لأي مدينة عامرة حيث يتبين منها مقدار تقدم ورقي وثراء تلك المدينة. فمن المعروف أن الرحالة الذين كانوا يجوبون المدن والأمصار سواء من أهل المشرق او المغرب عربا أم أعاجم كان إهتمامهم ينصب أكثر من أي شيء آخر في المدينة التي يزورونها على اسواقها وما تتميز به من سعة أو ضيق. كذلك يولون موضوع الشكل او الطريقة التي تعرض فيها البضائع، محلية أم مستوردة شيئاً من إهتمامهم فضلاً عن كونها كانت مرتفعة الأسعار أو متدنية. فالأسواق إذن هي المقياس الأمثل عند الرحالة والبلدانيين الذين يتبينون منها مقدار تقدم المدن أو تأخرها كما ذكرت.

وقد لا أكون مبالغاً إذا ما قلت أن لسعة المدينة وموقعها الجغرافي وكثرة او انخفاض عدد سكانها أهمية بالغة في ازدهار أسواقها او ضمورها. وإذا أخذنا على سبيل المثال مدينة بغداد حاضرة العراق نجد أن ازدهارها ربما كان يرجع الى أنها تمثل مكاناً وسطاً بين شرق العالم المتحضر وغربه وبين جنوبه وشماله. كما أنها كانت تقع على الطرق التجارية الرئيسية التي كانت تربط الموانئ الجنوبية، وبشكل خاص ميناء البصرة الحيوي، مع الموصل وديار بكر ومدن الأنضول عموماً. ولأنها تقع كذلك على الطرق التجارية الرئيسية التي تربط الصين وإيران ببلاد الشام ومصر والشمال الأفريقي وحتى الأندلس، او مع موانئ

به بغداد لقرون طويلة، وانتقلت فكرة الأسواق التخصصية منها الى مدن أخرى وبخاصة الى سامراء عندما شيدها المعتصم بالله ٢٨-٢٣٢هـ/٨٣٣-٨٤٢م في سنة ٢٢١ هجرية.^(٥) وقد ورد ذكر الأسواق البغدادية في كثير من كتب البلدانيين العرب وغيرهم. ومما يؤكد إنفراد كل سوق بصنف معين من البضاعة ما كتبه ابن خرداذبة (ت ٢٨٠ هـ) من أن الخزف الصيني كان يستورد للأسواق في بغداد. وقد وصف لنا أسواق الجانبين الشرقي والغربي من بغداد فذكر مثلا أن سوق الرصافة كانت سوقا عظيمة جامعة. وقال في أحد أسواق الجانب الغربي وهو (سوق يحيى) بأنه: " ذو الدكاكين العالية والدروب العامرة."^(٦) أما ابن الجوزي المتوفي في سنة ٥٩٧ هجرية فإنه يصف سوق الطيور في جانب الرصافة من بغداد بقوله: "... سوق يجمع الرياحين وفي حواشيه الصيارف الظراف وأصحاب الطيالس وفاخر الملابس."^(٧) ومن البديهي أن تظل العاصمة العراقية طوال عهدها المتتابعة لها شهرة خاصة بسوق الكتب والتي كانت تعرف في العصر العباسي بـ(سوق الوراقين) التي كان لها وجود منذ عهد ابي جعفر المنصور، والتي كتب عنها ابن الجوزي أنها سوق كبيرة وهي مجالس العلماء والشعراء.^(٨)

ولا شك إن للأسواق التخصصية مزاياها الحسنة، منها سهولة إحكام الإشراف الحكومي عليها. كما أن التاجر لا يستطيع أن يرفع سعر السلعة خوفا من جيرانه من أرباب نفس الحرفة.^(٩) غير أن أهم تلك المزايا هي في جمع كل، او لنقل جلّ او معظم الحوائث المتخصصة في بيع ضرب معين من السلع في موضع واحد مما ييسر على الزبون او المشتري حرية الإنتقاء والإطلاع على الأسعار، إذ بإمكانه أن

يعرّج. في زيارة واحدة للسوق على جميع الحوائث المتخصصة ليطلع على كل ما فيها من السلع التي يرغب في شراء شيئا منها.

وهكذا فقد إزداد عدد الأسواق التخصصية في بغداد مع إتساع المدينة وبمرور الوقت. يذكر ابن الجوزي أيضا انه كان في بغداد في أيامه (النصف الثاني من القرن السادس الهجري) سوق للعطارين وآخر للطيب وثالث للصيدلة ورابع للدهون وسوق للأشنان، فضلا عن سوق كبيرة تباع فيه جميع أنواع الأسلحة المتيسرة للناس شرائها.^(١٠) ووردت إشارات أيضا الى ضروب أخرى من التجارات كان لها أسواق تخصصية : مثل سوق للجرار، إنها متخصصة في بيع الأواني الفخارية من مختلف الأنواع، وسوق لبيع الدواب وأخرى للعلافين الذين إقتصر نشاطهم التجاري على بيع ما يطعم الحيوانات من ماشية ودجاج وطيور وغيرها من الدواجن.

ومن الأسواق أيضا سوق خاص بأصحاب الهرائس التي هي في واقع الأمر سوق او شارع خاص بالمطاعم حيث يذكر المقدسي أنه كانت هناك لكل محل منها دكة مرتفعة فرشت فيها الحصر والموائد وضعت عليها صحون وطشوت وأباريق لمن يود أن يتناول طعامه من الناس وذلك مقابل دفع دنانق واحد.^(١١)

وتشير المدونات التاريخية الإسلامية أيضا أنه كانت للكثير من هذه الأسواق أبواب تغلق عندما تتوقف عمليات البيع والشراء مساءً ولا تفتح الا في صباح اليوم التالي. فمن الأسواق التي ذكر أنه كانت لها أبواب في مدينة بغداد سوق الثلاثاء وسوق الدواب وسوق الغنم وسوق التمر.^(١٢) وظل للكثير من الأسواق المهمة أبواب عبر العصور التي أعقبت العصر العباسي وحتى يومنا هذا.

وفي عهد الإحتلال العثماني للعراق أشار الرحالة الأوربيون الذين قدموا الى هذه البلاد أو إجتازوا بها إبتداءً من القرن السادس عشر الميلادي أن بغداد كانت حافلة بالأسواق العامرة، منها العامة الجامعة ومنها المتخصصة بضروب معينة من البضائع. فمن هؤلاء الرحالة الذين أشاروا الى أسواق بغداد الإنجليزي بكنكهام Buckingham الذي زار بغداد في شهر رمضان من سنة ١٨١٦ فذكر أن معظم أسواقها كان مقفراً أثناء النهار في حين إنها تعج أثناء الليل بحشود من الناس الذين إكتسوا أوفر ثيابهم وقوامها سراويل من الحرير الرقيق الملونة وعمائم بيضاء اللون. ويضيف بكنجهم الى ما تقدم بأن تلك الأسواق كانت تتلألى بالأنوار نتيجة إيقاد القناديل والمصابيح الكثيرة في داخل الحوانيت وعلى واجهاتها، وكذلك في شرفات المقاهي وغيرها من المباني، مما كان يشيخ البهجة والحيوية فيها، حتى باتت : "... أسواق بغداد مطابقة للفكرة التي تتكون لدى المرء عنها عند الإطلاع على اوصاف المدن الشرقية في القصص العربية." (١٣)

ومن الواضح أن ما يقصده هنا هو جاء في قصص ألف ليلة وليلة.

ومع ذلك فإن هناك من الرحالة الأوربيين الذين قدموا الى بغداد من خاب ظنهم بأسواقها. منهم البريطاني جيمس فريزر الذي قدم الى بغداد في سنة ١٨٣٤ فهو يقول أن خيبة ظنه في تلك الأسواق لم تكن بسبب إفتقارها الى السعة والإمتداد لأنها كانت على مقدار كاف منها، ولا خلوها من الناس او عدم وجود حركة فيها لأنها تكون في كثير من الأحيان مكتظة إكتظاظاً كافياً فتظهر بمظهر يزيد تنوعاً وبهاءً عما يلاحظ في السواق الإيرانية، بل بسبب مظهر الإهمال

والتهدم الذي يعزى جزئياً الى الكوارث التي أصابت المدينة. (١٤)

ومع ذلك فإن هذا السائح البريطاني يشيد بعدد من أسواق بغداد بسبب بنائها الجيد وسقفها المرتفعة دون أن يشير الى واحد منها على وجه التحديد. فهو يذكر مثلاً أن بعضها كان يتكون من ثلاثة أو أربعة فروع او شعب تمتد الى مسافات بعيدة، ويضيف أيضاً بأن بعض تلك الأسواق وكانت من تشييد الوالي داود باشا قد بنيت بالأجر والجص بشكل جيد وظلت من الشمس القوية بسقوف واقية ذات أطواق عالية مبنية بالمواد نفسها. ولاشك إن ما يقصده هنا هو أن تلك السقوف كانت على شكل سلسلة من القبوات المتتابعة. ومن البديهي أن تلك الأسواق التي أشار اليها فريزر لم تكن كلها من المنجزات العمارية للوزير داود باشا الذي تولى أمانة بغداد للحقبة الزمنية المحصورة بين سنتي ١٢٣٢-١٢٤٧ هـ / ١٨١٦-١٨٣١ م. والذي ربما كان من

أفضلهم.

ولا شك أن العراقيين قد أصيبوا بشيء من الإحباط عندما عاد العراق الى حكم الأتراك العثمانيين المباشر. وليس من المستبعد أنه لهذا السبب أحاط العراقيون داود باشا بهالة من التمجيد والإعتراف وبشكل خاص عند البغداديين الذين أحبوه حباً جماً نظراً لسيرته الحميدة وحبه للعمران. وذلك يبدو لي أنهم نقلوا لهذا الرحالة صورة مشرقة عن سيرته ونسبوا اليه الكثير من المباني العامة من مساجد وأسواق وغيرها والتي من بينها ما يرجع بلا أدنى ريب الى زمن يسبق أيام أيلاته. ومع ذلك إذا ما تفحصنا صكوك الوقفيات وما يرتبط بها من الحجج الشرعية المحفوظة في دواوين الأوقاف العراقية نجد ان هناك الكثير جدا من المساجد والمشاهد وغيرها من المباني العامة قد أوقف عليها عدد ليس

بالقليل من الحوانيت والحمامات والخانات وما شابه ذلك من العقارات.

ومن المرجح أن سوق السراجين المتميز بسقفة العالي ذي الأقبية المتجاورة هو واحد من تلك الأسواق الأنيقة المظهر الجيدة البناء، المشيدة بالآجر والجص التي عناها فريزر بالإشارة أو الرسم ولكن من دون أن يخصصها بالإسم. وسواء صح هذا الترجيح أو لا يصح فنحن نعلم أن هذه السوق كانت وما تزال من جملة أوقاف جامع حسن باشا الذي يقع على الضفة الشرقية من نهر دجلة عند رقبة جسر الشهداء الحالي والذي سمي بهذا الإسم نسبة الى مشيده الوزير حسن باشا ابن الوزير محمد باشا الطوبال والي بغداد ١٠٠٦ - ١٠٠٨ هـ / ١٦٠٠ - ١٦٠٤ م في مطاوي سنة ١٠٠٨ هجرية ١٦٠٢ م في موضع يظن أنه كانت تشغله المدرسة التنشئية التي شيدت في حوالي سنة ٥٠٠ هجرية في الموقع الذي كان يعرف بـ (درب دينار) عند رأس الجسر في جانب الرصافة (شكل - ١).^(١٥) وقد عرف هذا الجامع منذ اواسط القرن الثاني عشر الهجري باسم جامع الوزير وذلك للتميز بينه وبين الجامع الذي جدد عمارته الوزير حسن باشا ابن مصطفى باشا في سنة ١١٣٦ هجرية، كما عرف بـ (جامع عتيق حسن باشا) تمييزاً له عن الجامع المذكور الذي عرف للسبب نفسه بـ (جامع جديد حسن باشا).^(١٦) ومن المعروف أن هذا الوالي كان من جملة الولاة الذين قاموا ببناء المساجد في بغداد أو ترميمها.^(١٧)

وعلى ذلك فإنه قد يبدو أن يكون سوق السراجين من المباني العامة التي شيدها حسن باشا حيث أن صاحب كتاب (دوحة الوزراء) عبد الرسول الكركوكلي المتوفي في سنة ١٨٢٦ م يذكر أن تعمير سوق

السراجين قد تم بأمر من والي بغداد سليمان باشا الكبير (١١٩٤-١٢١٧ هـ / ١٧٨٠-١٨٠٢ م) الوزير الذي تجاوزت فترة أيلته على ثلاث وعشرين سنة والتي تعد أطول فترة زمنية لاي من الولاة سواء كان ذلك في عهد الإحتلال العثماني أو في فترة حكم المماليك لبغداد.^(١٨)

ويذكر الكركوكلي أن سليمان باشا قد شيّد أيضاً السور الذي يحيط بالجانب الغربي من بغداد.^(١٩) وشيّد كذلك المدرسة السليمانية التي ما يزال مدخلها قائماً.^(٢٠) كما عمّر أيضاً جامع (القبلائية)،^(٢١) وجامع (محمد الفضل).^(٢٢) فضلاً عن ترميمه لجامع الإمام أبي حنيفة النعمان في الأعظمية بما في ذلك طلي منذنته بالذهب الخالص كما جاء في الأخبار. وقد أيد ما كتبه الكركوكلي مؤرخ معاصر له هو عثمان بن سند الوائلي البصري المتوفي في بغداد سنة ١٢٤٣ هجرية (١٨٢٧ م) حيث يذكر أن سليمان باشا الكبير قد أنجز الأعمال المذكورة وأضاف إليها أنه أتمّ بناء الخان الذي يقع في السوق قرب دار الأمانة (سراي الحكومة)،^(٢٣) الخان الذي ربما بدأ بتشييده سلفه الوالي حسن باشا (١١٩٢-١١٩٤ هـ / ١٧٧٨-١٧٨٠ م) ولم يكمله.^(٢٤)

وعلى الرغم مما يبدو أن ابن سند قد إستقى شيئاً من معلوماته التاريخية وبشكل خاص ما يتعلق منها بأخبار الولاة الذين سبقوا داود باشا ١٢٣٢ - ١٢٤٧ هـ / ١٨١٦ - ١٨٣١ م من مصادر مدونة منها كتاب (دوحة الوزراء) للكركوكلي،^(٢٥) غير أنه مع ذلك فقد إعتد أيضاً على مصادر مستقلة فقد جاء بإضافات بالنسبة الى إنجازات سليمان باشا العمارية.^(٢٦)

وعلى ذلك يمكن القول بأن سوق السراجين بشكله الحالي هو على الأرجح من المباني العامة التي تم إنجازها أيام إيالة سليمان باشا الكبير ربما قبيل نهاية

القرن الثامن عشر، بعد أن هدم ما كان قد شيده من قبل الوزير حسن باشا، وبقي هذا السوق من أوقاف جامع الوزير شأته في هذا شأن السوق القديم أو الحوانيت التي كانت تشغل قطعة الأرض التي أقيم فوقها جامع الوزير ثم سوق السراجين الذي كان وما يزال من أوقاف هذا الجامع.^(٢٧) والغريب حقا أنني لم أجد أية إشارة إلى سوق السراجين في الكتاب الذي أعده الدكتور عماد عبد السلام بخصوص معالم بغداد في القرون المتأخرة، مع أنه قد تطرق إلى ٦٨ سوقا في الجانب الشرقي من بغداد عدا أسواق الجانب الغربي.^(٢٨) وربما السبب في ذلك أنه لم يجد اسم هذا السوق ضمن وثائق الوقفيات في دواوين الأوقاف التي اعتمد عليها الباحث بشكل أساس. ثم علينا أن لا ننسى أن السوق بأجمعه كان ولا يزال وقفا على جامع الوزير فقط في بغداد.

السرج في اللغة يعني رحل الخيل أو رحل الدابة، وجمعها سروج، والسراج بئاع السروج وحرفته السراجة.^(٢٩) إن سوق السراجين كانت من الأسواق التخصصية بصناعة وبيع سروج الخيل وربما البغال أيضا. غير أنها باتت اليوم سوقاً لصناعة وبيع المواد الجلدية بمختلف أنواعا باستثناء طبعا صناعة السروج أو ربما حتى تصليحها، أو على الأقل لم لاحظ أنا شخصا في تلك السوق من يتعاطى مثل تلك الحرفة في أيامنا هذه. أن أكثر ما يقوم به الحرفيون في تلك السوق هي صناعة الحقائق الجلدية والنطاقات وغير ذلك من صناعات جلدية، والسبب واضح هو أن الناس بعامة لم تعد بحاجة إلى السروج، شأنهم في هذا شأن الناس في معظم أرجاء المعمورة.

لابد وأن يكون الإقبال على صناعة السروج وبيعها في مدينة مثل بغداد كان كبيرا ومربحا، حيث أن الولاة كانوا يحتفظون في العادة فيها بقوة عسكرية كبيرة

تشكل فصائل الخيالة منها القوة الضاربة الرئيسة حيث كانوا يستعينون بها دوما في حماية أياهم وكذلك في حماية العراق بشكل عام من الغزو الخارجي، فضلا عن إخماد حركات التمرد والثورات التي كانت تقوم بها القبائل العربية من حين لآخر. وقد أشار الرحالة فريزر إلى تشكيلات الحرس الخاص من الخيالة التي كان يحتفظ بها الوزير داود باشا في بغداد والذين كانوا يتزينون بالألبسة الزاهية ويتدججون بالسلاح الفاخر وهم على صهوات الجياد الأصيلة المطهمة بالجهاز المزركش.^(٣٠) ومن البديهي أن سوق السراجين كان يقوم بتلبية طلبات تلك الخيالة الخاصة بالدولة إلى جانب ما كان يقوم به من تلبية إحتياجات أهل بغداد والمدن المجاورة من سروج الخيل والبغال ومعلقاتها. وهكذا فإن وجود سوق خاص بالسراجة في بغداد لا بد

وأن يكون عصرئذ من الأمور الضرورية الملحة.

ومهما يكن من أمر فإن سوق السراجين الذي يقع بين جامع الوزير من جهته الغربية وسوق السوراقين المعروف اليوم بسوق السراي من جهته الشرقية ليس من الأسواق الكبيرة ولا المتشعبة إلا أنه من الأسواق الأنيقة الجيدة البناء.^(٣١)

يتكون هذا السوق من جناحين يمتدان إلى يمين وشمال مدخل جامع الوزير. يبلغ طول إمتداد الجناح الأيمن منه والذي يفضي إلى الشارع المؤدي إلى مدخل جسر الشهداء أو الجسر القديم أو العتيق كما كان يسمى سابقا إثنا وثلاثين مترا أما الجناح الذي يقع إلى شمال المدخل فيبلغ طوله ٢٠,٧٥ مترا، وإذا أضفنا إلى ذلك طول الساحة المربعة الوسطية من السوق التي تتقدم مدخل الجامع وهي ٣,٩٠ مترا فيكون طوله الكلي حوالي ٥٢ مترا (شكل ٢-٢). ولذا يمكننا إعتباره من الأسواق التراثية الصغيرة في بغداد. أما بخصوص

عرض السوق : أي الممر الخاص بالسابلة الواقع بين الحوانيت المتقابلة فيبلغ أقل قليلا من أربعة أمتار.

تشغل الحوانيت طابقي السوق وهي متساوية في العدد في كلا الطابقين. فيبلغ عددها في كل طابق ثمان وثلاثين حانوتا موزعة على الشكل التالي: أحد عشر حانوتا على يمين الداخل الى المسجد وثمانية حوانيت الى شماله. وهناك تماما مثل هذا العدد من الحوانيت في الجانب المقابل (شكل - ٣). ويعلوه في الطابق العلوي مثل هذا العدد من الحوانيت وبنفس التوزيع (شكل - ٤). وهكذا يكون مجموع حوانيت السوق ست وسبعين حانوتا.

ومما تجدر ملاحظته أن عرض جميع الحوانيت متساو وثابت وهو ما يقرب المترين فقط، أما العمق فمتفاوت فهو يتراوح بين مترين وثلاثة أمتار. وربما أكثر قليلا في بعض الأحيان. والسبب في الاختلاف في العمق يعود الى طبيعة الأرض التي يشغلها جامع الوزير من جهته الخلفية وسوق الوراقين من جهته الأمامية.

إن جميع ابواب السوق مصنوعة من الخشب: يتكون كل واحد منها من عدة قطع من عضادات الخشب المترابك والمتعاشق. وتختلف أبواب حوانيت الطابق السفلي عن أبواب حوانيت الطابق العلوي من حيث التصميم، ففي الوقت الذي تفتح فيه أبواب الطابق الأرضي الى الداخل، تفتح أبواب الحوانيت في الطابق العلوي عن طريق الإنزلاق الى الأعلى وبسبب وجود الممر الضيق الذي يتقدم حوانيت الطابق العلوي والذي يبلغ عرضه تسعين سنتيمترا فقط، ولحماية المتسوقين او السابلة من خطر السقوط الى الأسفل أقيم عند طرفه الخارجي سياج إرتفاعه في الوقت الحاضر ثمانين سنتيمترا يتألف من عضائد من الخشب المتقاطع

والمتصالب. إن للحوانيت الواقعة في جهة جامع الوزير في كلا الطابقين نوافذ تسمح بمرور الضوء والهواء، غير أن نوافذ الحوانيت الواقعة في الطابق العلوي أكبر حجماً. أما الحوانيت الواقعة لصق سوق الوراقين فإن النوافذ مقتصرة على ما واقع منها في الطابق العلوي فقط. وهي مشابهة تماما لنوافذ الجانب المقابل لها من السوق. ثم أن هذه النوافذ والتي يمكن فتحها من الداخل فقط مستطيلة الشكل كبيرة نسبيا لها جميعا أطر من الخشب مثبتة عليها سفايف الحديد المانعة للصوصية (شكل - ٥).

وإذا كانت لحوانيت سوق السراجين من الخصوصيات العمرارية التي تجعلها تختلف عن معظم حوانيت الأسواق التراثية المعروفة في بغداد اليوم فإن ما تتميز به هو ليس بتلك الحوانيت فحسب بل في التصميم العام وبشكل خاص ما يتعلق منه بسقفه المرتفع وبعقوده المدببة وبقبواته البيضوية الشكل، كذلك بقبتيه التي لانظير لهما في بقية الأسواق التراثية الشاخصة ليس في بغداد فحسب بل في جميع المدن العراقية.

فالسقف مثلا يتكون من سلسلة متتابعة من العقود المدببة المرتفعة، يبلغ عددها الإجمالي واحدا وعشرين عقدا عرض كل عقد ستين سنتيمترا. تبدأ سلسلة العقود بمدخل السوق المطل على الشارع الذي يفضي الى الشارع المؤدي الى جسر الشهداء الحالي وذلك بمسافات متساوية تبلغ المترين تقريبا اللهم الا في موضعين فقط. الموضع الأول عند مدخل جامع الوزير والثاني عند نهاية الموضع الذي ينعطف به ليلتقي بسوق الوراقين. ففي كلا هذين الموضعين تبلغ المسافة بين العقدين أربعة أمتار. والسبب في ذلك هو إتاحة المجال لاقامة قبة فوق كل من الموضعين. أما

الطريقة في إستخدام المثلثات البنائية باتت شائعة في العمارات في النصف الثاني من العصر العثماني.

ويلاحظ في سوق السراجين أيضا، وكذلك في نصف قبة مدخل جامع الوزير أن مثلثات الزوايا ذات اشكال معينة قليلة الغور محددة بأطر من القراميد المزججة ذات اللون الأخضر كما نلاحظ في وسط كل معين من هذه المعينات مربع مزجج أخضر اللون أيضا. إن أكبر هذه المعينات هو الذي يقع في الأسفل أي عند زاوية كل عقدين من العقود التي تستند عليها القبة. والذي يتميز أيضا بشيء من الإستطالة، تليه خمسة صفوف من المعينات التي تزداد صغراً في قياساتها ويزداد عددها على التتابع. ويلي الصف العلوي والأخير من المعينات دائرة ذات زخارف مستننة دقيقة ومتتابعة .

٦×٢٥×٢٥ سم وبطريقة مشابهة للطريقة التي رصفت بها أرضية الحوانيت، وكذلك ممشى السابلة وأرضية الرواق العلوي (شكل - ٩).

أما بالنسبة الى الطريقة التي عولجت فيها موضوع الإنارة والتهوية داخل السوق فهناك نوافذ او لنقل كوى سقوية نافذة سداسية الشكل وسط كل من القبتين (شكل - ١٠)، وكوى أصغر حجما في بواطن جميع القبوات المحصورة بين العقود التي تشكل سقف الممر الوسطي الكبير الخاص بالسابلة (شكل - ١٠).^(٣٦) إن معظم أسواق بغداد التراثية في جانب الرصافة من بغداد ذات سقوف مشابهة الى حد ما لسقف سوق السراجين اللهم بإستثناء أنها أكثر بساطة منه وهي تضم أيضا كوى سقوية على نفس شاكلة هذا السوق مثل سقف السوق التراثي المعروف بـ (سوق دانيال) وكذلك السوق



مركز تحقيقات كالمبيوتر علوم إسلامي

عمد المعمار الى فتح نوافذ كبيرة متقابلة عند النهايات السفلية من القبوات. إنها مستطيلة الشكل ضلعها العلوي على شكل نصف دائرة (شكل-١٦)،^(٤١) وذلك بدلا من النوافذ اى الكوى السقفية السداسية الشكل التي أستعين بها في سوق السراجين او الدائرية التي أستخدمت في معظم أسواق بغداد التراثية المعقودة مثل سوق دانيال وسوق (الزنجيل) وغيرهما.^(٤٢)

وبالإضافة الى السوق المصري في إستنبول فإن هناك العديد من الأسواق المعقودة في بلاد آسيا الصغرى موزعة على المدن فيها، من أهمها (السوق الكبير) في مدينة قيصرية وسوق (على باشا) في مدينة أدرنة وسوق (محمود باشا) في أنقرة.

فلا شك أن من أهم أوجه التشابه بين الأسواق العثمانية في بلاد الأناضول وسوق السراجين وبقية الأسواق التراثية في بغداد هو في طريقة التسقيف من جهة ثم في إستخدام القباب نصف الكروية المنخفضة التي تعلق بعض أقسام السوق من جهة اخرى.

ومن المعروف أن القبة نصف الكروية كانت هي الشائعة في العصر الأموي،^(٤٣) ثم اختفت في العصر العباسي لتحل بدلا عنها القبة المدببة بانواعها المختلفة، ثم عادت الى الظهور مجددا في العمارة العثمانية نتيجة للتأثر المباشر بالأساليب العمرية التي كانت متبعة في العمارة البيزنطية إثر فتح كبرى المدن البيزنطية على يد الأتراك العثمانيين وكان آخرها العاصمة أستانبول في سنة ٨٥٦ هجرية ١٤٥٢م.

أما بالنسبة الى مواد البناء ومتعلقاتها فهي تختلف كليا أيضا، فالمعول عليه في بغداد كان ولا يزال الأجر والجص، في حين أن البناء في آسيا الصغرى بما في ذلك مدينة إستانبول هو الخشب والحجارة سواء ماكان منها مهندما مصقولا أو غير ذلك.^(٤٤)

الأسواق المسقفة التي إشتهرت بها المدن العثمانية في بلاد الأناضول التي شيدت في ظل الحكم العثماني وبخاصة ونحن نعلم أن بلاد الرافدين كانت جزءا من المملكة العثمانية ويرتبط إرتباطا مباشرا مع العاصمة العثمانية إستانبول. ففي هذه المدينة يعتبر السوق المركزي الذي شيده السلطان محمد الفاتح ٨٥٥ - ٨٨٦ هـ/١٤٥١-١٤٨١م أقدم الأسواق العثمانية فيها. يليه في القدم السوق القريب الذي أقام صرحه السلطان سليمان القانوني (٩٢٦-٩٧٤ هـ/١٥٢-١٥٦٦م) في حدود سنة ٩٤٠ هجرية (١٥٣٣م).^(٣٨) غير أن هذين السوقين قد دمر في أواخر القرن السابع عشر نتيجة للحريق الكبير الذي تعرضا له، وقد أعيد تشييدهما في سنة ٩٤٠ هجرية ١٧٠١م، وما يزالان يحتفظان بشكلهما وتخطيطهما منذ ذلك الحين.^(٣٩) والسوقان يختلفان من حيث البناء والتصميم إختلافا واضحا عن سوق السراجين. فإن من أهم نقاط الإختلاف أن الحوانيت في سوقي إستانبول تحيط بساحة كبرى وسطية مسقفة تتقاطع فيها سلسلة من العقود التي تحصر بينها في سوق محمد الفاتح خمس عشرة قبة منخفضة. وفي سوق سليمان القانوني عشرين قبة (شكل - ١٥).

غير أن أقرب أسواق إستانبول التراثية الى سوق السراجين كما يبدو هو السوق المعروف بـ (المصري) الذي يقع في وسط المدينة والمشيّد في سنة ١٦٦٠ ميلادية. فكما هو الأمر مع السوق البغدادي إن سقف سوق إستانبول معقود بنفس الطريقة التي أتبعته في بغداد: إي أن تسقيفه كان عن طريق الإستعانة بسلسلة من العقود المدببة المتوازية أقيمت على مسافات متقاربة تحصر بينها قبوات ترتفع قليلا عن مستوى العقود.^(٤٠) ولغرض إدخال ما يكفي من الضوء والهواء

نعم.... إذا كانت هناك نقاط تلتقي فيها العناصر
العمارية بالأسواق العثمانية في بلاد الأنضول من
عمارات وسوق السراجين أو غيره من العمائر التي
شيدت في العصر العثماني، فإن الأساس في العمارة
العراقية في ذلك العصر هو تراثها العريق الذي إنحدر
بشكل مباشر عن العمارة التي تطورت وتبلورت في
العصر العباسي سواء ما كان منها في بغداد أو في بقية
المدن العراقية. غير أنه مع الأسف لم تصل إلينا بشكل
مؤكد نماذج لمثل هذه الأسواق ترتقي إلى ذلك العصر
أو إلى الحقب الزمنية التي أعقبت سقوط بغداد بيد
المغول في سنة ٦٥٦ هجرية / ١٥٣٤م.

ومع ذلك إذا سلمنا بأن القباب الكروية المنخفضة
في بغداد اليوم ومنها في سوق السراجين متأثرة بشكل
مباشر بالقباب العثمانية البيزنطية الأصل، وهو ما
أعتقد، فإن القبة الصغيرة القائمة سنة عقود مديبة ذات
المراكز الأربعة التي تعلو النافذة السقفية الخاصة بقبة
سوق السراجين التي تتقدم مدخل جامع الوزير هي من
النوع الذي كان شائعا جدا في الطراز العماري العباسي
في العراق والتي يعتبر البناء المعروف بـ (القبة
الصليبية) قبالة مدينة سامراء التي ترتقي إلى القرن
الثالث الهجري / التاسع الميلادي أقدم نموذج لها في
العراق وفي بقية العالم الإسلامي.

وبالنسبة إلى سلسلة العقود المتوازية التي تحصر
بينها قبوات والتي تعتبر العمود الفقري لسوق السراجين
والسوق المصري في إستانبول فإنها كانت بلا شك
شائعة في العصر العباسي، حيث أتبع في تسقيف
ممرات المدرسة المستنصرية التي فرغ من بنائها
سنة ٦٣٢ هجرية / ١٢٣١م ، والقصر العباسي في بغداد
الذي يرتقي إلى نفس الزمن أو قبل ذلك بقليل. ومن
أكثرها وضوحا نجدها في خان مرجان ببغداد أيضا.

الخان الذي تم تشييده في سنة ٧٦٠ هجرية / ١٣٥٩م
بأمر من أمين الدين مرجان حاكم بغداد من قبل
السلطان الجلثري الشيخ أويس بن الشيخ حسن
(٧٥٧-٧٧٧هـ / ١٣٣٦-١٣٧٤م).^(٤٥) فيلاحظ في
تسقيف الخان أنه قد تم عن طريق إقامة سلسلة متوازية
من العقود المدببة الضخمة مع فواصل على مسافات
متساوية عرضها حوالي المترين، بإستثناء الفاصلة
الوسطى التي يبلغ عرضها ٣,٢٠ مترا. ومن البديهي
أن تلك الفواصل قد شغلت بالقبوات.

إن الفرق الوحيد تقريبا بين سقف خان مرجان
وسقف سوق السراجين ينحصر في الفراغات أو
الفواصل الواقعة بين العقود، ففي سوق السراجين، كما
ذكرت في أول هذا البحث، قد شغلت بقبوات بيضوية
تتوسط كل قبة فيها نافذة سقفية، في حين أنها شغلت
في خان مرجان بقبوات متدرجة وعلى نظام معين ثابت
الغرض من بنائها على شاكلتها تلك هو ليتسنى فتح
نوافذ عديدة بشكل إعتيادي فقد جعلت أشبه بالجدران
الشاقولية المتدرجة (شكل - ١٨). أن هذه الطريقة في
عمل النوافذ قد سمح بإدخال مقدار كبير من ضوء
النهار إلى داخل البناء، ثم أن هذا الطراز في التسقيف
قد أكسب خان مرجان مكانة عمارة نادرة ومتميزة في
العصر الإسلامي عموما.^(٤٦)

وهكذا يمكننا القول بإطمئنان أن الطراز العماري
لسوق السراجين ببغداد متأثر بعض الشيء بالطراز
التركي العثماني : الطراز الذي كان سائدا في آسيا
الصغرى وبعض الأقاليم الإسلامية الأخرى في الحقبة
الزمنية المحصورة بين القرنين السادس عشر ونهاية
القرن التاسع عشر الميلادي أو بعيد ذلك بقليل. غير أن
الأساس في طراز البناء في سوق السراجين يعتمد كليا
على التراث العماري العراقي الأصيل الذي ينحدر

الطابق الأرضي الى الطابق الأعلى قد الغيت او أغلقت بشكل نهائي. كذلك تم إجراء شيء من التغييرات في بعض أجزاء الطابق السفلي من السوق قام بها مؤجروا الحوانيت أنفسهم دون إذن من الجهات المختصة مع الأسف.

إن آخر الترميمات التي قامت بها وزارة او ديوان الأوقاف كانت في عامي ١٩٨٥ و ١٩٨٦. والسبب المباشر في تلك الترميمات هو سقوط جزء يسير من القبة الرئيسة التي تتقدم مدخل جامع الوزير. وقد تم ترميم تلك القبة فضلا عن ترميمات يسيرة في جوانب أخرى من السوق.

بشكل او بأخر عن الأصول العمارية التي تبلورت في العصر العباسي وظل الكثير منها قيد الإستعمال في العصور اللاحقة وربما حتى القرن التاسع عشر الميلادي.

وأخير لا آخرأ لابد وأن يكون سوق السراجين شأنه في هذا شأن معظم المباني البغدادية المشيدة بالأجر والجص قد خضع الى بعض أعمال الصيانة والترميم. ربما أهمها او أهم المعروف منها تلك التي قامت بها وزارة الأوقاف العراقية في سنة ١٩٧٠ م حيث تم ترميم الجدران وإصلاح العقود وتوسيع الحوانيت الواقعة في الطابق العلوي للجناح الملاصق لسوق الوراقين. كما أن بعض السلالم المؤدية من



مركز تحقيقات كالمبيوتر علوم إردنى

معروف، التربية والتعليم، موسوعة حضارة العراق، بغداد

١٩٨٥، ٧٣/٨.

١٦- رؤوف، عماد عبد السلام: معالم بغداد في القرون المتأخرة،

بغداد ٢٠٠٠، ص ١١٦.

١٧- سوسة وجواد: المصدر السابق، ص ٢٣٣.

١٨- يبلغ عدد الولاة العثمانيين أو ما يعرفون بالمماليك منذ

إحتلال سليمان القانوني لبغداد في سنة ٩٤١ هجرية

(١٥٣٤م) ولغاية إحتلال بغداد من قبل القوات البريطانية

سنة ١٣٣٥هـ/١٩١٧م، ١٣١ واليا.

١٩- لقد كان طول هذا السور كما ذكر فيليكس جونس

ولينكوود ٥٣٠٠ مترا، وكان مدعوما بثلاث وثلاثين برجاً،

سبعة منها كبيرة، كما كانت له ثلاثة أبواب أو مداخل هي

على التوالي: (باب الكريسات) و(باب الحلة) و(باب

الكاظم).

٢٠- يعلو هذا المدخل شريط كتابي يضم أبيات من الشعر

بالتركية تؤرخ إفتتاحها في سنة ١٢٠٦ هجرية

(١٧٩١م).

٢١- ينسب هذا الجامع الى والي بغداد قبلان مصطفى باشا

الذي تولى أيلة بغداد بين سنتي ١٠٨٧-١٠٨٨ هجرية

(١٦٧٦-١٦٧٧م) وقد فرغ من بنائه في السنة الثانية

والأخيرة من أيلته على بغداد. (محمود شكري الألوسي،

مساجد بغداد، ص ٥٧). وقد هدم هذا الجامع مع الأسف

الشديد في سنة ١٩٧١م ولم تتخلف منه سوى منذنته.

٢٢- جامع قديم من جوامع بغداد تداعى للسقوط أيام ولاية

سليمان باشا، فجدده في سنة ١٢١٠ هجرية (١٧٩٦م).

(الآلوسي، ص ٥٧).

٢٣- ابن سند، عثمان الوائلي البصري، مطالع السرور،

تحقيق عماد عبد السلام وسهيل القيسي، بغداد ١٩٩١،

ص ٢٤٤.

٢٤- ومن البديهي إنه غير حسن باشا الذي مر ذكره في

الفقرة السابق. في الواقع أن هناك خمسة من ولاة الدولة

العثمانية تولوا أيلة بغداد يحمل كل منهم اسم حسن باشا

كلا أولهم حسن باشا الذي مر ذكره سابقاً وآخرهم حسن

باشا هذا. ومعظم هؤلاء لا نعرف عنهم إسماً غير هذا

الإسم.

١- اليعقوبي، أحمد بن أبي يعقوب: كتاب البلدان، ليدن، ١٨٩١،

ص ٢٤٣.

٢- لم تكن مدينة السلام أولى المدن الإسلامية التي برزت فيها

ظاهرة تخصص الأسواق فقد عرف مثل هذا التخصص

بعض المدن العراقية في العصر الأموي نوعاً بدانياً منها،

فيذكر اليعقوبي مثلاً أن خالد القسري الذي تولى أمارة

العراق بين سنتي ١٠٥ - ١٢٠ هجرية (٧٢٣ - ٧٣٧م)

قد جعل الأسواق في الكوفة حسب عروض التجار الذين

يتعاطون بضروب معينة من ضروب التجارة، فجعل لكل

مجموعة منهم داراً وطاقاً خاصاً بهم. (اليعقوبي، المصدر

السابق، ص ٤٣٥).

٣- نفس المصدر، ص ٣٤٥.

٤- الصولي، محمد بن يحيى، (ت ٣٣٥ هـ): ص ٦٨.

٥- نفس المصدر، ص ٧٠.

٦- ابن خرداذبة: المسالك والممالك.

٧- نقابة المهندسين، بغداد، ص ٢٢٤.

٨- ابن الجوزي، عبد الرحمن: مناقب بغداد.

٩- الكبيسي، حمدان: أسواق بغداد، بغداد، ١٩٧٩، ص ١٧٦.

١٠- ابن الجوزي، عبد الرحمن، (ت ٥٩٧ هـ): مناقب بغداد،

ص ١٨.

١١- المقدسي، محمد بن أحمد، (ت ٣٨٠ هـ): أحسن

التقاسيم في معرفة الأقاليم، ص ١٢٩.

١٢- أبو الفدا، إسماعيل بن علي، (ت ٧٣٢ هـ): تقويم

البلدان، باريس، ١٨٤٠، ص ٢٩٣.

١٣- بكنجهام، جيمس: رحلتي الى العراق، ترجمة سليم طه

التكريتي، بغداد ١٩٦٩، ص ٨٣.

١٤- فريزر، جيمس بيلي: رحلة فريزر الى العراق، ترجمة

جعفر خياط، بغداد ١٩٦٤، ص ٧٧.

١٥- إن هذه المدرسة كانت مكرسة لتدريس المذهب الحنفي.

أمر ببنائها الأمير خمارتكين بن عبد الله التتشي المتوفي

سنة ٥٠٨ هجرية (١١١٤م) وتبين من أسماء من قام

بالتدريس فيها من الشيوه أنها ظلت نشطة حتى منتصف

القرن الثامن الهجري/ الرابع عشر الميلادي. (بشار عواد

العراق، رسالة دكتوراه غير منشورة، جامعة بغداد
١٩٩٠، ص ٢٠.

٣٧- نقابة المهندسين العراقيين ، بغداد ، ص ٣١٩.

38- Unsel, S., Turkish Islamic Architecture, London 1970, p.57.

٣٩- إن آخر تدمير تعرض له هذان السوقان كان نتيجة
للحريق الذي وقع في شهر تشرين الثاني سنة ١٩٥٤
والذي دمر أكثر من ثلاثة أخماس السوق. وقد أعيد
ترميمهما مجددا على نفس شاكلتهما القديمة في سنة
١٩٥٦ (Ibid., p. 57).

٤٠- إن المسافة بين عقد وعقد تتراوح بين ٢ - ١,٨٠
مترا.

41-Unsel,S.,Op.Cit.,p.87.

٤٢- كان سوق الزنجيل يعرف في العصر العباسي بـ(سوق
السلسلة) او (درب السلسلة) الذي كان جزءاً من سوق
الثلاثاء الكبير.

٤٣- القباب التي ترتقي الى العصر الأموي قليلة جدا او نادرة.
لم يصلنا أي منها من العراق. ربما أفضل الأمثلة عليها
نجدها في بعض القصور الأموية الصحراوية الواقعة في
الطرف الغربي من بادية الشام. منها قبة الحمام في البناء
المعروف بـ(قصير عمرة) وقبة الحمام أيضا في قصر
الصرخ.

٤٤- إن استعمال الأخشاب في البناء كان على نطاق واسع في
بلاد الأنضول في العهد العثماني، حتى أن أهل بغداد كانوا
يقولون إن بغداد تتعرض على الدوام الى الغرق وإستانبول
الى الحرق.

٤٥- لقد شيد مرجان أيضا مدرسة ومستشفى وقد أوقف الخان
المذكور على تلك المستشفى (مديرية الآثار القديمة، دليل
خان مرجان، بغداد ١٩٣٨، ص ١).

٤٦- المصدر السابق، ص ٢.

٢٥- لقد كان المصدر الوحيد الذي صرح ابن سند في مواضع
عدة من كتابه أنه نقل منه وهو ما نسبه الى من سماه: "
هكذا نقله المؤرخ التركي".(ابن سند، المصدر السابق،
مقدمة الدكتور عماد عبد السلام، ص ٤١).

٢٦- فهو يذكر مثلا أنه عمّر سور بغداد الشرقية والحق
بالمدرسة السليمانية مكتبة مشحونة بالكتب الحديثة
والفقهية والأدبية، وكذلك زوّق منذنة جامع الإمام الأعظم
وعمرّ الجامع الذي شيده سليمان باشا في موقع جامع
الخلفاء هذا الجامع الذي نقض في سنة ١٩٥٧ وأدخل في
أرض شارع الرشيد(المصدر السابق، الحاشية ٢٣٦، ص
٢٤٤).

٢٧- هناك اليوم في بغداد سوق آخر يعرف بإسم (سوق
السراجين) يقع في محلة العوينة ببغداد الشرقية.
٢٨- عبد السلام: المصدر السابق، ص ١٨١ - ٢٢٥.
٢٩- ابن سيدة، المخصص، القاهرة ١٩٠٣، ١٨٧/٢.
٣٠- فريزر، المصدر السابق، ص ٨٧.

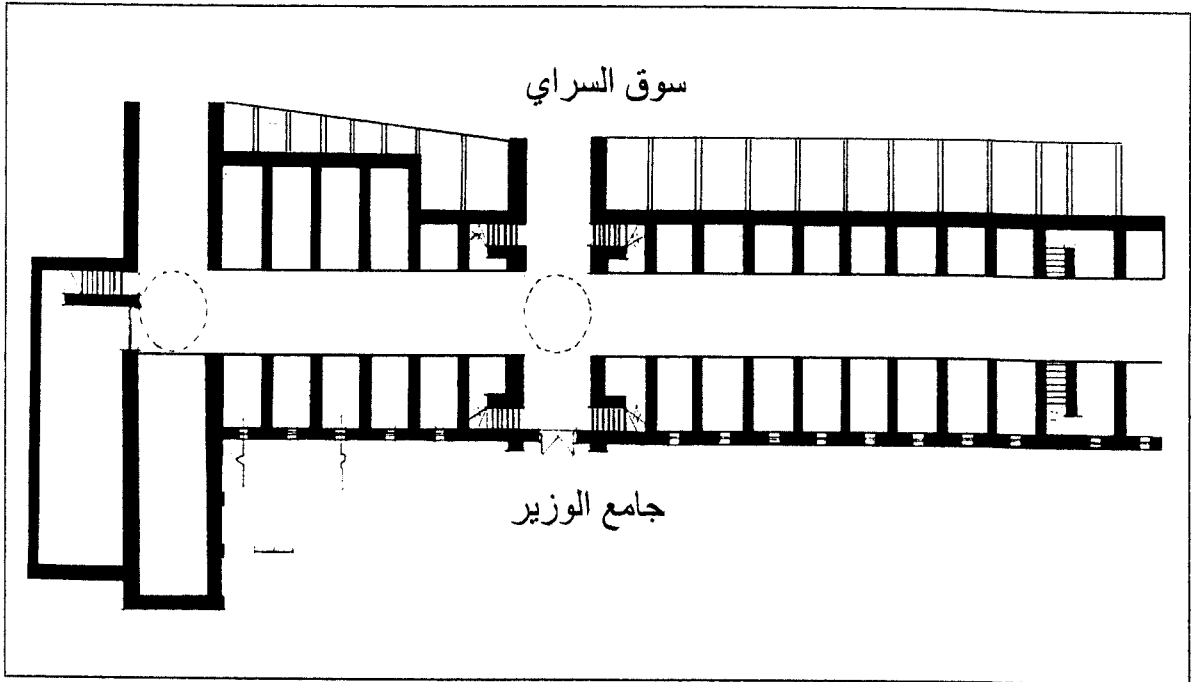
٣١- إن سوق السراي يختلف تماما عن سوق السراجين فهو
لايرقى الى مستوى السوق الأخير من حيث الأناقة
والرياسة او دقة البناء فضلا عن أنه كما يبدو متأخراً في
الزمن وقد قامت مؤسسة الأوقاف بإعادة بنائه في
السنوات الأخيرة وفق أساليب الرياسة العربية الإسلامية.

٣٢- حميد، عبد الغزيز، الزخرفة في الآجر، موسوعة حضارة
العراق، بغداد ١٩٨٥، ٤٠٧/٩.

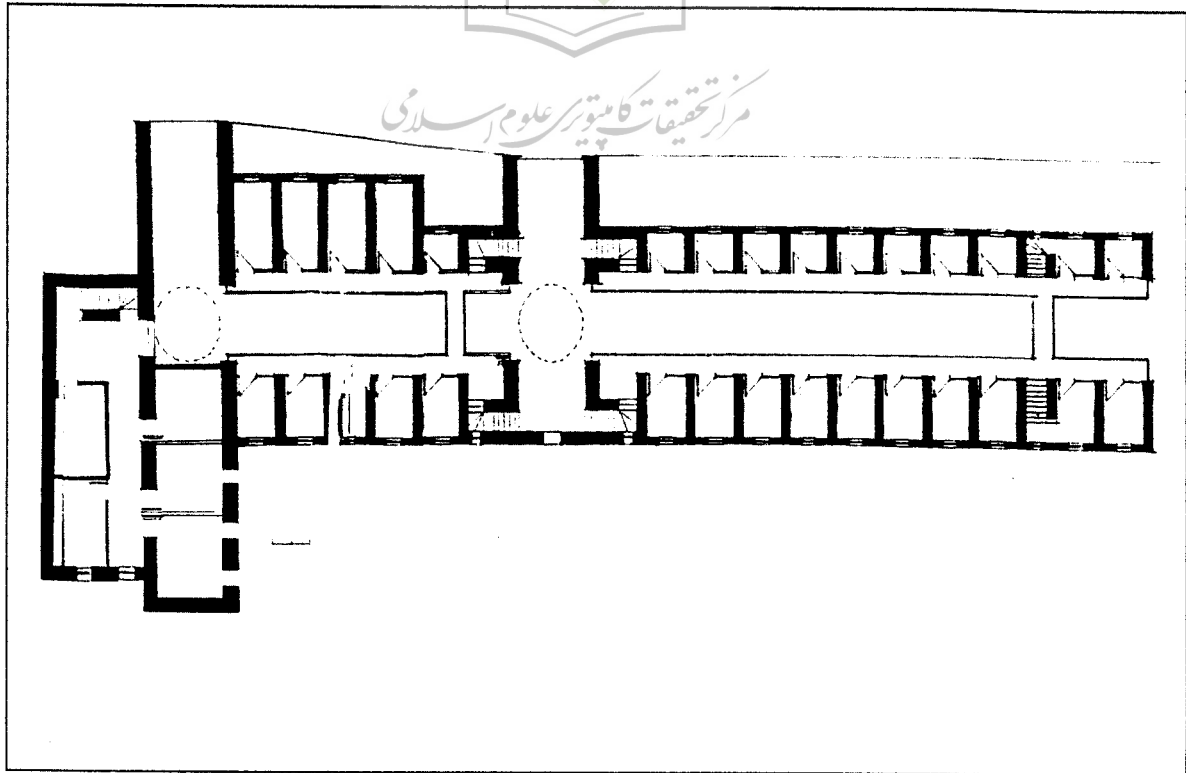
33- Cresswell, K. A. C. , A short Account of
Early Muslim Architecture, Beirut, 1968, p. 197
34- Ibid., p. 187.

٣٥- عيسى سلمان وآخرون: العمارات العربية الإسلامية في
العراق، بغداد ١٩٨٢، ١٠١/٢.

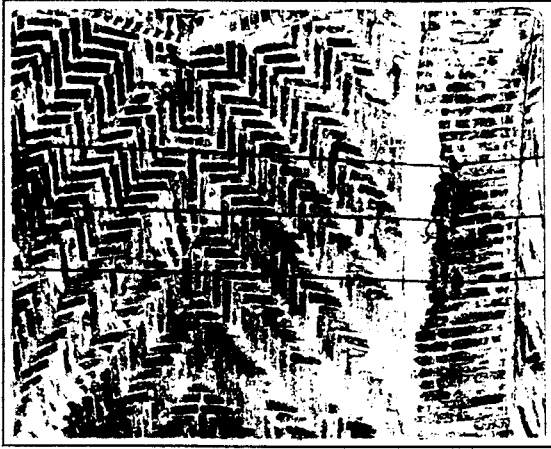
٣٦- إن من أسماء هذا الضرب من النوافذ السقفية التي
ترددتها السنة العامة في العراق قولهم (السماية) المأخوذة من
اسماء، حمزة حمود حمزة، النوافذ في العمارة العباسية في



شكل - ٣
المخطط الارضي لسوق السراجين



شكل - ٤
مخطط الطابق العلوي



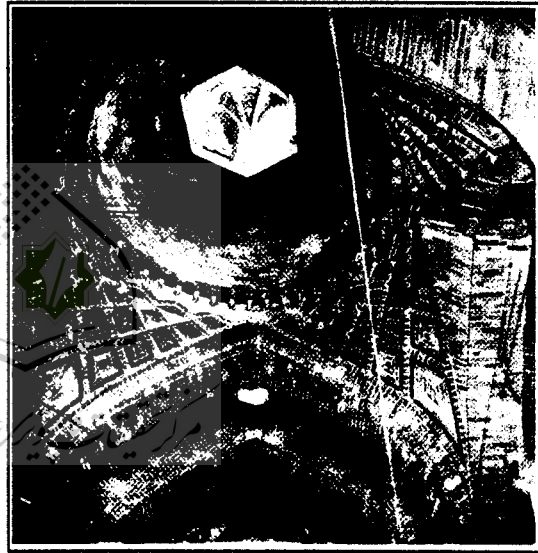
شكل - ٦
الزخرفة الأجرية الحصيرية التي تزين
بواطن قبابات السوق.



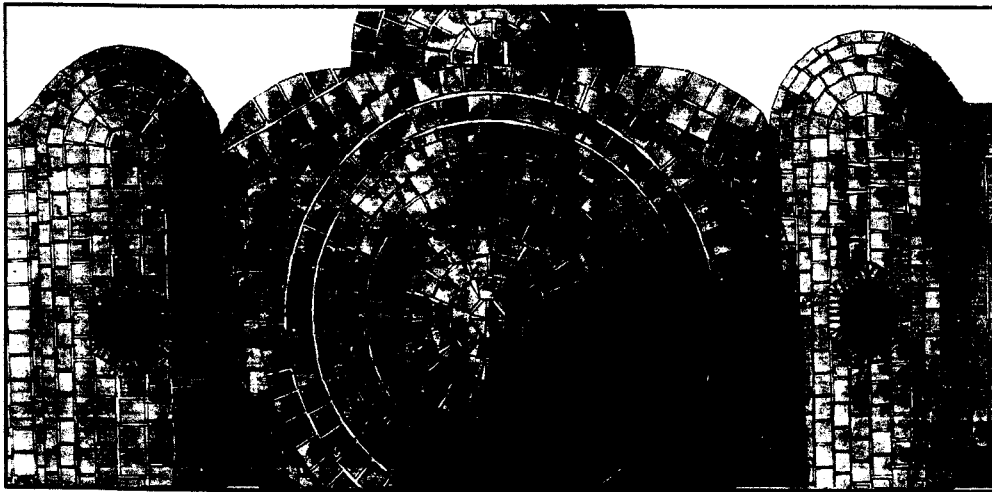
شكل - ٥
صورة للسوق مأخوذة من صحن
جامع الوزير.



شكل - ٨
جزء من القبة الرئيسية ونصف القبة
التي تتقدم جامع الوزير.



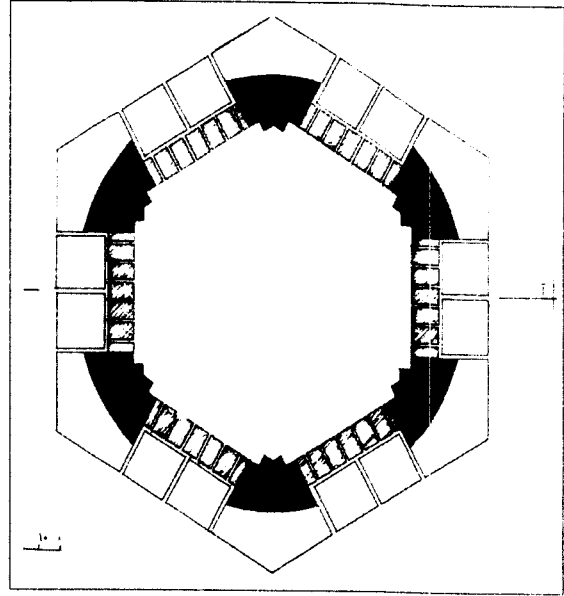
شكل - ٧
باطن القبة الرئيسية التي
تتقدم مدخل جامع الوزير.



شكل - ٩
سقف سوق السراجين العلوي.



شكل - ١١
منظر داخلي للسوق القريب من
المدرسة المستنصرية.

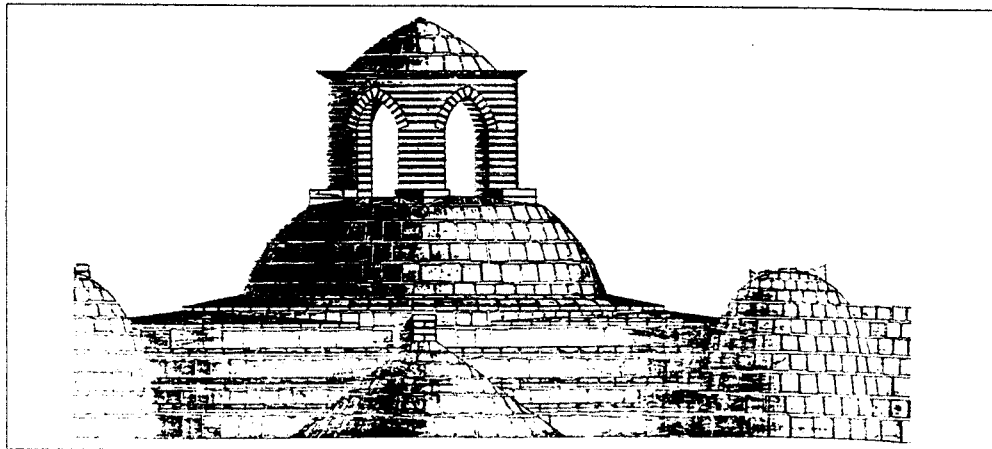


شكل - ١٠
رسم تخطيطي للنافذة السقفية للسوق.

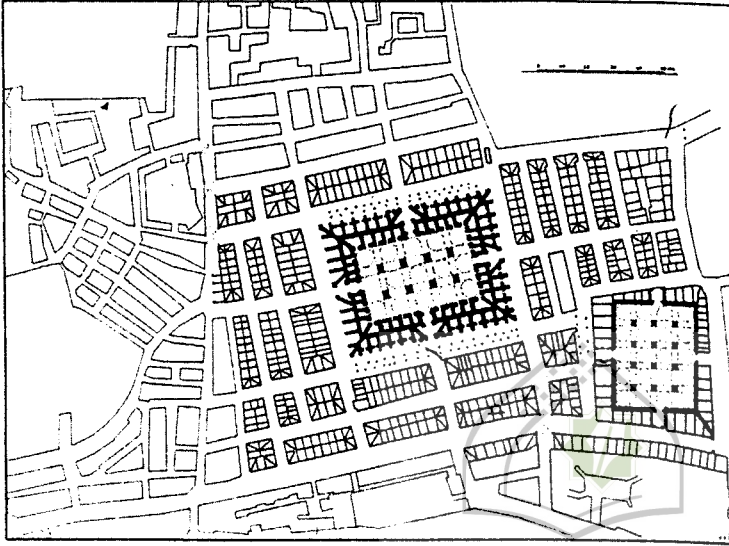
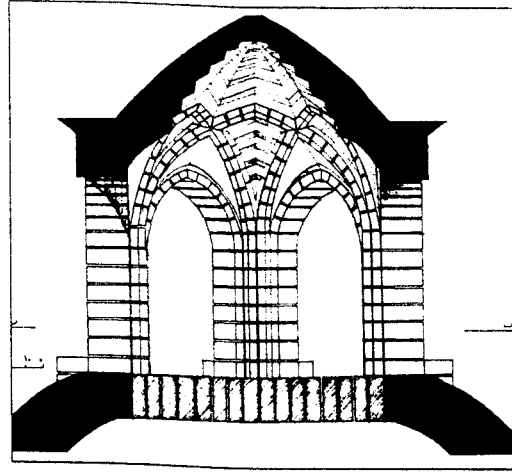
شكل - ١٢



شكل - ١٣
الجزء الخارجي لقبة وقبوات
سوق السراجين.



شكل - ١٤
مقطع هندسي للنافذة السقفية
لقبة سوق السراجين.



شكل - ١٥
مخططات لاسواق مدينة استنبول
الرئيسية والتي منها سوق محمد
الفتاح وسليمان القانوني.



شكل - ١٧
منظر داخلي لخان مرجان
كما هو عليه اليوم.



شكل - ١٦
صورة لداخل السوق المصري
في مدينة استانبول.